مستقبل البلاد العثمانية

من خطبة لعزتلو افندم سعيد بك شقير مدير عموم معارف السودان تلاها في الخرطوم ليلة الاحتفال بافتتاح مجلس المبعوثان العثماني في ٧ دسمبر الماضي

ابناء وطني الكرام

اسمحوا لي اول كل شيء ان اشكر لكم حسن ظنكم بي لانتخابكم اياي لارئس هذا الاجتماع لان كلاً منكم احق بالرئاسة مني . فان دعوتكم هذه التي اسعدني الحظ بتلبيتها صيرتني مسرورًا مضاعفاً . مسرورًا بالغاية التي اجتمعنا من اجلها واشركتني معكم في الاجتماع ومسرورًا لانها ضمتني وفريقاً كبيرًا من خيرة اخواني الذين مكنتهم احوالهم الخصوصية وعلاقاتهم العائلية والمادية ان يهجروا البلاد السورية العثمانية كما هجرتها انا إما فرارًا من الجور في زمن السلف والاستبداد او سعيًا وراء الرزق وقد ضاق فيها على كل عزيز نفس يأبى ان يعيش متملقاً لحاكم مستبد او خادماً لاغراض ذي نفوذ ديني او سياسي يأمر بأمره ويميل حسب اميالهِ مع علمهِ انها اميال نفسانية او اغراض ذاتية مضرًا ان يوالي من لا يريد موالاتهُ وان يعادي من لا يريد معاداتهُ يصبح بالذي امسى فيهِ مكتئبًا مغلول اليدين ولسان حالهِ يردد ما قالهُ ابو الطيب

ومن نكد الدنيا على الحرّ ان يرى عدوًّا لهُ ما من صداقتهِ بدُّ
يروح ويغدو كارهًا لوصالهِ وتضطرهُ الايام والزمن الكدُّ

فعواطفهم جواشني والحرّ الذي يجرعونهُ في غربتهم مما صارت اليهِ بلادهم اتجرعهُ معهم ومضض العيش الذي يصبرون عليهِ انا فيهِ صابر عليهِ صبرهم من جميع وجوههِ المختلفة شكلاً والمتفقة معنًى . والغريب في بلاد اذا كان في ضيق يعطف على الغريب نظيرهُ الواقع في ضيق من نوع ضيقهِ ويسرُّ باجتماعهِ معهُ ليكون واياهُ في الشدة اخوانًا وعلى تفريجها اعوانًا مهما اختلفت مشاربهما فكيف بهِ اذا لقي ابن وطنهِ وكانت بلواهُ انس بلواهُ وشكواهُ نفس شكواهُ وكان اجتماعهُ بهِ وداعًا لضيق مرَّ وكان امرّ من الصاب واستقبالاً لسعادة باتت على الابواب . هذا هو شعوري وهذه هي احساساتي وقد ضمتني هذه الحفلة معكم

وغايتنا من اجتماعنا في هذه الحفلة ايها الاخوان ان نحيي ليلة انس نفرح فيها في غربتنا بما نالتهُ امتنا من النعمة والهناء بعد ان قضينا دهرًا طويلاً والصدور منقبضة والحزن مخيم على النفوس لا ينقضي تحس حتى تليهِ نحوس — قد اجتمعنا لنشترك مع باقي اخواننا العثمانيين

في جميع انحاء السلطنة العثمانية وغيرها حيث العثمانيون مقيمون في الاحتفال بافتتاح مجلس المبعوثان عنوان مجد الامة واساس تقدمها وفخرها او بعبارة اخرى بانتقال السلطنة من حكومة مطلقة استبدادية لا شأن للامة في تدبير شؤونها الى حكومة شورويّة دستورية تديرها فئة من الامة تنوب عنها فتسن قوانينها وتنظم شرائعها بحسب الزمان والمكان وتضع للحاكم حدًّا لا يتعداهُ فهو يسير حسب ارادتها ولا تسير هي حسب اهوائهِ وهو خاضع لمشيئتها وليست هي خاضعة لمشيئتهِ فلا يستطيع ان يظلمها ليزيد في تنعمهِ ولا ان يفقرها ليزيد في غناهُ ويتمتع بكل ما تشتهيهِ نفسهُ ولا يقيّد افكارها ويكمّ افواهها كي لا يعارَض في شيءٍ يريدهُ او اصرارٍ يأتيهِ

اذا اكثرت من الضرب على هذه النغمة او اطلت الكلام اكثر مما يحتملهُ المقام فلاعتقادي ان هذا الحديث مما لا تملهُ الصدور رغمًا عن قصور المتكلم وسوء تعبيرهِ فانهُ منذ ٢٤ يوليو وهو اليوم الذي بُعثت فيهِ الحياة في جسم السلطنة العثمانية والخطباء مثلث والوفًا يخطبون في اجتماعاتهم الخصوصية والعمومية في كل انحاء السلطنة العثمانية والكتبة يكتبون في نشرات خصوصية وعلى صفحات الجرائد العربية والاعجمية ولا يزالون حتى الساعة على هذا المنوال . والمشاهد انهُ لا يكتب كلمة في موضوع الحرية والدستور والمزايا التي اكتسبتها الامة في الحصول عليهِ الاَّ وجدت من النفوس ارتياحًا كانها السحر الحلال — ولا يعقد اجتماع في هذا العدد الاَّ ويكون لهُ من العثمانيين على اختلاف نحلهم ومللهم كل اقبال

والعجيب انهُ ظهر في القوم من الخطباء والكتبة والشعراء ما لم يكن يحلم بوجودهِ قبل ان أُطلق اعلان الدستور الالسنة والاقلام من عقالها . ولا شك انهُ سيظهر الاداري والمالي والسياسي والمهندس والقائد والمخترع والفيلسوف وقد افسح المجال للكل في ميدان التقدم والعمران — والامل انهُ لا يمضي ربع هذا القرن حتى تصبح الدولة العثمانية من الدول العظام تفتخر بادارة داخليتها وماليتها وحربيتها وبحريتها وزراعتها وصناعتها وتجارتها وتهاب سطوتها الدول العظام كما تهاب الواحدة منهنَّ الاخرى في هذه الايام

وآمالنا هذه كما ذكرنا في تلغرافنا[1] الذي ارسلناهُ اليوم معقودة بمجلس المبعوثان والمساعي

(١) هذه صورة التلغراف الذي أرسل

رئيس مجلس المبعوثان — الاستانة

العثمانيون هنا واكثرهم سروريون وارمن يحتفلون الليلة بافتتاح مجلس المبعوثان ويشتركون مع سائر العثمانيين بالابتهاج في هذا اليوم السعيد ويقدمون تهانيهم الى اعضاء المجلس لثقتهم بان الامة التي توجه انظارها وتعلق بهم آمالها ويؤملون ان مساعيهم تخدم مصالح الامة وتنشر المبادئ الحقة ويسعط لواء العدل والحرية والامن في انحاء السلطنة فتنهض الى اوج العز والمجد

سعيد شقير

التي سيبذلها في هذا الشأن معضودًا من افراد الامة وجميع عناصرها في كل مكان

وهل اصلاح هذه السلطنة بالامر اليسير يا ترى بعد ان مرَّ عليها هذا الزمن وهي مرتع للفساد فانفصل من اجزائها ما انفصل واعتلت ادارتها واختلت ماليتها وبارت تجارتها وانحطت صناعتها واهملت زراعتها وهجرها سكانها وتقاربت مشارب العناصر المؤلفة منها . وهل هي قابلة للاصلاح وبلوغ درجة الارتقاء التي نرجوها لها اذا توفرت لديها الاسباب لذلك — جوابي على هذه الاسئلة جواب عثماني يحب بلادهُ فلا يرى لها سوى مستقبل باهر تتحقق فيهِ كل هذه الاماني

ولكني لا ادَّعي اني ملمٌّ بكل مواضع الخلل وان كنت ملماً بكثير منها او اني اعرف كل الطرق الكافلة للاصلاح وان كنت اعرف بعضها فان هذه تستلزم خبرة كبيرة باحوال السلطنة لم تتهيأ لي وتفصيلها اذا وُفي حقهُ من الاشباع يستغرق وقتاً طويلاً لا يحتملهُ هذا المقام ولكني سأذكر شيئاً من اليسير الذي اعرفهُ عنها مما لي فيهِ خبرة اكثر من سواهُ

(المالية)

ماليتنا حتى الآن ليس لها نظام يعرف ولا شكل معقول يوصف فقد شاءت الحكومة الماضية ان لا تطلع الامة على دخلها وخرجها بل ان تدفع الامة الضرائب صاغرة دون ان تلمس ببنت شفة سائلة عن السبيل الذي تنفق فيهِ . يكدح العامل والزارع والتاجر والصانع اناء الليل واطراف النهار حتى اذا ما حصل شيئاً يقتات بهِ يومهُ ويدخر منهُ تشيلوخانهِ جاءهُ جابي الاموال فابتزَّ منهُ ما جمعهُ بعرق جبينهِ تحت اسماء مختلفة من الضرائب والرسوم والعوائد فانتهم منها ما شاء وارسل الى الخزينة ما شاء . وما وصل الى الخزينة كانت حكومة الاستبداد تنفق معظمهُ فيما حرمهُ الله من السبل غير مصغية الى تبكيت ضمير او استغاثة نقير

حالٌ اذا لم تكن في ذاتها عجباً فانما صيرنا فيها هو العجبُ

ولكن الذي يدهش الخبيرين هو ان دخل الخزينة العثمانية يبلغ نحو ١٨ مليوناً من الليرات العثمانية يذهب منها نحو ثلاثة ملايين ونصف فائدة للديون التي اقترضتها الحكومة فيما مضى ومقدارها نحو ١١ بليونين وتسع كبير لا يعلم مقدارهُ لأن الله كان ينفق على الجواسيس والمخلقين وما بقي يستخدم منهُ في دفع رواتب الموظفين الكبار وفي ما كان اضطراريًّا من نفقات الادارة والباقي في دفع رواتب صغار المأمورين وانفار الجند حماة الوطن الذين لولاهم ما كانت الامة العثمانية على ما هي فيهِ الآن من النعمة — هؤلاء الجنود كانوا يتركون

اليوم بعد اليوم والشهر بعد الشهر والسنة بعد السنة وليس على اجسامهم سوى خرق بالية لا تقيهم حر النهار ولا تدفع عنهم برد الليل وهم لا يكادون يحصلون اليابس من الخبز بلا ادام ليحفظوا اجسامهم وارواحهم معاً . ولكن الامر العجيب الذي يفتخر به العثمانيون في هذه الاحوال هو هؤلاء الجنود انفسهم فانهم رغماً عن هذه المعاملة السيئة لم يفقدوا عزة نفوسهم ولا فترت همتهم بل تحملوا الغيم صابرين وكانوا في كل معركة انتدبوا لها لحماية الاوطان موضوع اعجاب الصديق والعدو حتى شهدت لهم امم الارض انهم من اقوى جنود العالم بأساً واصعبهم مراساً واعظمهم شجاعة واشدهم اخلاصاً لدولتهم رغماً عن الظلم الذي قاسوه وسوء الحالة الذي وصلوا اليه

كذا كانت الطريقة التي كان ينفق فيها دخل المملكة ولم يكن هذا الدخل يكفي نفقاتها فكانت في معظم السنين تقترض النقود من مصادر مختلفة سداً لعجز الميزانية وقياماً بنفقاتها الادارية حتى بلغ دينها ما بلغ[1] وضاعت ثقة الماليين بها فلم تعد تستطيع ان تقترض درهماً الاّ بفائدة ثقيلة وبعد ان ترهن للحصول عليه شيئاً من دخلها او تتنازل عن كنز ثمين من كنوز السلطنة فاقترضت مليوناً ومئتي الف جنيه سنة ١٩٠١ بفائدة ٥ في المائة وثمانية ملايين سنة ١٩٠٢ وما ينيف على ٣٥ مليوناً سنة ١٩٠٣ ولكن القرضين الاخيرين كانا لتحويل بعض ديونها السابقة الى ما فائدته ٤ في المائة وتمكنت من استخدام قسم منهما لسد عجز الميزانية في العامين المذكورين وسنة ١٩٠٤ اقترضت ٢٢٠٠٠٠٠٠ لكة حديد بمصاد وسنة ١٩٠٥ اقترضت نحو ثمانية ملايين جنيه ذهب ذهب قسم كبير منها كما ذهب سواه وسنة ١٩٠٦ و١٩٠٧ اقترضت نحو تسعة ملايين جنيه تحويلاً لبعض ديونها السابقة ايضاً ولكنها استخدمت قسماً كبيراً من هذا القرض في سبلها المعهودة . وفي

(١) يبلغ دين الحكومة العثمانية نحو ١١٠ ملايين ليرة عثمانية منها نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ ليرة مضمون والجزية التي تدفعها مصر للدولة ومقدارها ٧٥٠٠٠٠ ليرة عثمانية ونحو ٨٠٠٠٠٠٠٠ ليرة مضمون يقسم كبير من موارد دخلها ونحو ١١٠٠٠٠٠٠ غير مضمون على ما يظهر . وفي الاستانة ادارة مخصوصة للديون العثمانية اشبه شيء بصندوق الدين المصري وهي تتولى على ربع الموارد المرهونة تدفع منها الفائدة لارباب الديون والموارد المرهونة هي رسوم الملح والمشروبات الروحية وورق اللعبة وعلبات الاسماك والحرير والبغ وجزية الغرولي وبعض رسوم الكمارك ونحو ذلك والدخل من هذه الموارد يقدر باكثر من ثلاثة ملايين ومائتي الف ليرة عثمانية

ولا شك انه متى قررت ميزانية للحكومة في السنة الاولى بعد انعقاد مجلس المبعوثان تتمكن الامة من معرفة حقيقة دخلها ونفقاتها ومقدار دينها والكيفية التي انفق بها

اواخر سنة ١٩٠٧ واوائل سنة ١٩٠٨ كانت ساعية في عقد قرض آخر لكي تدفع بهِ عنها بعض نتائج نفقاتها غير مبالية بالحالة التي ستجرها اليها هذه الديون ما دام الاستحصال عليها يعطيها نفقات اليوم ولا يهمها امر المستقبل

هذه حالتنا الى امس فما الذي نأمل ان نراهُ في القريب العاجل بهمة مجلس المبعوثان وعضد الامة لهُ كما سبق الكلام

(الزراعة)

من المعلوم والتاريخ اصدق دليل ان كل بلاد انتبهت الحكومة فيها الى موارد ثروتها وامّنت الزارع على زراعتهِ والصانع على صناعتهِ والتاجر على تجارتهِ والمتملك على عقارهِ فرفعت الضرائب الجائرة وابقت ما كان خفيفاً عادلاً وبسطت راية العدالة والمساواة في الحقوق بين افراد الرعية صارت تلك البلاد الى التقدم سيرًا عظيماً لم يكن يتصوّر لها فنمت تجارتها وزادت ثروتها اضعاف ما قدرهُ لها المصلحون والمتفائلون لما يظهر. ولست احتاج ان اذهب بعيداً لشواهدي فهذا السودان الذي نحن فيهِ رغماً عن رمالهِ المحرقة وامهال اكثر اراضيهِ وقلة سكانهِ وما خرب الدراويش منهُ والاحوال الخصوصية التي تقضي على مصلحيهِ ان لا يطمحوا بابصارهم في الوقت الحاضر الى النيل لريّ اراضيهِ ولا يسمحوا بزراعتها شيئاً يعود بالضرر على مالية القطر المصري كزراعة النيغ مثلاً زادت ايرادات خزينتهِ في اقل من عشر سنوات ثلاثين ضعفاً اي من ٣٥٠٠٠ جنيه الى ما ينيف على مليون جنيه وزادت قيمة وارداتهِ وصادراتهِ معاً من نصف مليون جنيه الى ما ينيف على مليونين ولا يبعد ان يكون عدد سكانهِ قد تضاعف لو امكن تعدادهم في الماضي واليوم والامن فيهِ سائد يسير الغريب كيف شاء في طولهِ وعرضهِ حيث بسطت الحكومة ظلها فاذا لم يؤذ الوحش لا ينالهُ اذى. كل ذلك نتيجة سهر حكام نزهاء يسعون في سبيل الاصلاح

وهذه مصر جارتنا وكلنا يعرف تاريخها الحديث منذ ربع قرن الى اليوم — فان ايراد خزينتها رغماً عن تخفيض الضرائب المستمر زاد من تسعة ملايين جنيه الى ١٦ مليوناً في ١٩٠٧ وقيمة صادراتها وواردتها معاً زادت من ١٩٥٠٠٠٠٠٠ جنيه سنة ١٨٨٠ الى ٥٤ مليوناً سنة ١٩٠٧ واراضيها الزراعية زادت في هذه المدة اكثر من مليون فدان ومحصولها من القطن ارتفع من مليونين وربع مليون قنطار الى نحو سبعة ملايين قنطار وبلغت قيمتهُ في ١٩٠٧ نحو ٢٣٦٠٠٠٠٠٠ جنيه وعدد سكانها الذي هبط في عهد الحكومات الاستبدادية من ٨ ملايين الى نحو ٣ ملايين عاد فارتفع في عهد الاصلاح الى ان بلغ احد عشر مليوناً وربع مليون .

كل هذه حقائق ثابتة تثبتها السجلات الرسمية وكنت احب ان اورد سواها ولكن هذين الشاهدين يكفيان لتقيس حالة البلاد العثمانية ومستقبلها عليهما اذا بدأت فيها يد الاصلاح

ان مساحة البلاد العثمانية في اوربا واسيا وافريقيا في الوقت الحاضر عدا ما انفصل عنها من البلدان نحو مليون و ١٥٨ الف ميل مربع[1] وهذه المساحة تزيد على مجموع مساحات الكنترا وفرنسا والمانيا والنمسا والمجر وايطاليا واسوج ونروج واسبانيا واليابان معاً وفيها من الاراضي الزراعية ما يكفي اضعاف اضعاف سكانها الحاليين فان فيها قامت اعظم دول الارض منذ عهد التاريخ فالكلدانيون والبابليون والاشوريون والسلوقيون والفرس والعباسيون تقلبوا عليها فعمروا واستعمروا واثروا وكانت الارض تفيض لهم لبناً وعسلاً والمظنون ان وسائط الري لم تكن متيسرة للهندسي تلك الازمان كما هي متيسرة لهندسينا هذه الايام ويكفي ان اذكر ان بين الفرات ودجلة نقط منطقة من الارض طولها ٩٠٠ كيلومتر ومساحتها نحو ثلاثة عشر مليون فدان اي ضعفا اراضي مصر الزراعية وهذه المنطقة ذات تربة خصيبة قل ان تفوقها تربة في العالم وهي المنطقة التي زارها منذ اعوام غير بعيد السر وليم ولككس ووضع فيها تقريره المشهور فابان فيه الطريقة اللازمة لاصلاح الري هناك ووصف حالة التربة وصفاً مستوفياً وذكر ما يصلح للزراعة فيها من المزروعات التي تعود بربح وافر تنفي الامة والحكومة معاً. ولكن تقريره هذا بقي حبراً على ورق شأن كل مشروع حميد في عهد الحكومة الماضية حتى انقلبت فقامت الحكومة الدستورية اليوم غيورة على البلاد راغبة في الاصلاح فتمسكت بذلك المشروع وسواه مما طرح في زوايا الاهمال في العهد القديم واستدعت السر وليم ولككس صاحبه كما هو معلوم ليستوفي درسه ويخرجه من حيز القول الى حيز الفعل. وقد اتفق لي قبل تركي مصر اني قابلت صديقي يوسف افندي التيموس المهندس الشهير فاخبرني انه طالع ما كتبه السر وليم ولككس في هذا الصدد بالتدقيق وعلمت منه ان كلاً من نهري الفرات ودجلة يصب في الثانية نحو ثلاث مائة متر مكعب من

---

(١) مساحة الاملاك المحرز للدولة العثمانية وعدد سكانها كما يأتي

	اميال مربعة	عدد السكان بوجه التقريب
في اوربا	٦٥٣٥٠	٦٢٠٠٠٠٠٠
في اسيا	٦٤٣٦١٠	١٧٢٠٠٠٠٠٠
في افريقيا	٣٩٨٩٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠
والجملة	١١٥٧٨٦٠	٢٤٩٠٠٠٠٠٠

المياه مدة التحاريق وتزيد هذه الكمية الى خمسة آلاف مدة الفيضان اي ان كلاً من النهرين يصب من المياه مقدار ما كان يصب النيل قبل عمل الخزان . وفي المنطقة التي سبقت الاشارة اليها فصل حار يدوم زهاء ستة اشهر في السنة وهو كافٍ لزراعة القطن وقصب السكر . والارض كما سبق القول ذات خصب عجيب ينمو فيها كل ما ينمو في البلدان الحارة وصرف المياه منها اهون من صرف من ارض مصر كما تبين بالتحليل والمدرس

فهذه بقعة واحدة في بلادنا العثمانية كافية لان تخرج لنا بعد اصلاحها واصلاح ريها ضعفي ما تربحهُ مصر من حاصلاتها . وغير هذه البقعة بقاع اخرى اذا لم تكن واسعة لطيرها فهي ليست بقليلة الشان في زيادة ثروة السلطنة ولقد ذكر لي يوسف افندي كثيرًا منها في البلاد العثمانية ولكني لست اشير الاَّ الى المعروف منها لاخواني السوريين فان في الحولة نحو ١٥٠٠٠ فدان مغمورة بالمستنقعات يستطاع تجفيفها واصلاحها بنفقة قليلة وهذه الاراضي اخصب تربة من ارض مصر وتصلح لزراعة القطن والبن وقصب السكر والحبوب على انواعها وتبعد عن خط سكة حديد حيفا نحو ثلاثين كيلومترًا فقط . وبين صور وصيدا بقعة من الارض يبلغ طولها نحو ٤٠ كيلومترًا وهي من اجود الاراضي تربة ويمكن ريها بعين قناطر تجز على نهر القاسمية والمشروع لا يقتضي نفقة تذكر بالنسبة الى الفائدة التي تنجم عن ري هذه الاراضي . وهو الان يدرس هذا المشروع درساً مدققاً ولا يبعد ان يتولى اخراجهُ من حيز القول الى حيز الفعل وعند النهر الكبير والنهر البارد قرب طرابلس الشام اراضٍ متسعة يمكن ريها بسهولة من هذين النهرين وهما لا يبعدان عن طرابلس اكثر من ثلاثين كيلومترًا ومثل ذلك يمكن ري اراضٍ كثيرة متسعة قرب حمص من بحيرة قريبة منها

ويطول بي الوقت اذا اسهبت في ذكر ما يمكن ريهُ من الاراضي وهو لا يروى الآن وفي اصلاح ري كثير من الاراضي التي تروى ريًّا غير مستوفٍ ولكني اكتفي بما ذكرت بياناً لما يمكن عملهُ لاصلاح الزراعة في المملكة العثمانية وكلٌّ يعلم انهُ اذا تقدمت الزراعة زادت ثروة البلاد واتسع نطاق تجارتها وزاد عدد سكانها وتحسنت مالية حكومتها وساد الامن فيها لان الفلاح متى اثرى اصبح محافظاً على الامن والسكينة من طبعهِ ليتمتع بمالهِ وثروتهِ

(المعادن)

هذا من حيث الزراعة وعدا هذه فان البلاد ولاسيما المنطقة الواقعة منها في آسيا غنية بمعادنها فان فيها كثيرًا من المعادن المعروفة التي تعود عليها بالثروة اذا انتبه الى استخراجها ولكنها مهملة لاسباب شتى ففيها معدن الكروم ويستخرج منهُ الآن من بقعة واحدة عرف وجودهُ

فيها نحو ١٥٠٠٠٠٠ طن سنويًا . وفيها الرصاص الفضي والزنك والمغنيس والانتيمون والنحاس فان في ارغني في ولاية ديار بكر منجمًا من النحاس يقول المخبرون انهُ من اكبر مناجم الدنيا واغناها وفيها البورق والذهب والفضة والزئبق والستباذج والزئبق والحديد والكبريت والرخام على اختلاف انواعهِ وفيها الفحم الحجري والحميتهُ في الصناعة وفي نجاح البلدان لا تحتاج الى بيان . فان في حوضه على البحر الاسود منجمًا يستخرج منهُ سنويًا نحو ٤٠٠٠٠٠٠ طن ولا يبعد ان توجد مناجم غيرهُ في بقاع اخرى . وفيها منابع بترول في اواسط وادي الفرات وفي اماكن كثيرة في اسيا الصغرى وعلى الشاطئ الشمالي من بحر مرمرا وفيها غير ذلك من المعادن التي لا شك انهُ في عهد الدستور يسهل على ارباب الاعمال والاموال استقصاؤها واستثمارها فتجري منها مياذيب ثروة على البلاد والحكومة . ومتى اثرت البلاد وتحسنت مالية حكومتها امكن تنظيم داخليتها واصلاح جيشها وعمارتها البحرية وترقية جميع شؤونها

(المستقبل)

فالاصلاح اذًا ميسور والبلاد قابلة لهُ من حيث اراضيها الزراعية ومعادنها وموانيها واستعداد سكانها للتقدم فقد نبغ منهم في كل زمان افراد ظهر منهم من الهمة والذكاء في جميع الفنون العلمية والادبية والصناعية والسياسية ما يمكن اتخاذهُ دليلاً على ان الامة لا تحتاج الى مساعدة الاجانب طويلاً حتى تصير غنية منهم بابنائها في كل ما يلزمها — واني اسرح نظري في عالم الخيال وانظر الى ما يمكن ان تصير اليهِ المملكة العثمانية في الاستقبال فتجلى امامي مملكة عظيمة الشأن قوية الاركان تضاهي بعظمتها وضخامة ملكها اعظم ما وصلت اليهِ دول الارض فيما سلف من الزمان من انكلدان الى الرومان واليونان والانكليز في هذه الايام . فاوى ايراد خزينتها ١٤٠ مليونًا من الجنيهات كايراد الخزينة البريطانية لا ثمانية عشر وقيمة صادراتها نيفًا وخمسمائة مليون من الجنيهات كقيمة صادرات بريطانيا ومستعمراتها لا خمسة وعشرين مليونًا كما في الحالة الآن واوى لها جندًا ضخمًا تخفق فوقهُ رايات النصر ابنًا سار فيهِ المسلم والمسيحي والاسرائيلي على السواء من تركي وعربي وارمني وسوري وغير ذلك من العناصر المؤلفة منها السلطنة يحارب الواحد مكانفًا الآخر وهو اخوهُ في الوطنية وشريكهُ في السراء والضراء وان خالفهُ دينًا ولغة وارى لها عمارة بحرية تباهي بها عمارات اعظم الدول البحرية . والبحري فيها كالجندي في الجيش مدرب احسن تدريب على الحركات العسكرية لابس احسن لباس يقبض راتبهُ في حينهِ وتعتني الحكومة بطعامهِ وشرابهِ وراحتهِ كما يعتني الاب ببنيهِ وارى التعليم الزاميًا في كل انحاء المملكة والمدارس منتشرة فيها من عملية وطنية

وزراعية وصناعية وصناعتا العثمانيون يحوكون ما تنسجهُ على اختلاف انواعهِ وهم يبنون دورنا ويشيدون قصورنا ويعتنون وينسجون كل ما نحتاج اليهِ من الاثاث والرياش وسائر الادوات التي في المنازل والقصور ويخترعون ويصنعون كل ما يلزم للزارع في زراعتهِ والكاتب في كتابتهِ والتاجر في تجارتهِ والصانع في صناعتهِ والجندي والبحري في دفاعهما عن الاوطان ولكل عامل في عملهِ مهما كان — وارى العثماني عزيزاً مكرماً في عين الاجنبي فلا تداس حقوقهُ لضعفهِ ولا يستخف بهِ لانهُ تركي او سوري او روبي او ارمني عثمانيٌّ من الاجنبي ان ليس لهُ دولة ذات شأن تدافع عنهُ او جند عظيم قوي يهبُّ لحمايتهِ والذود عن حقوقهِ ولا يساق مكتوفاً في قلب السلطنة العثمانية الى السجن اذا اختصم مع اجنبي ويترك الاجنبي يسرح ويمرح ريثما يحصل التحقيق الابتدائي وارى الجنسية العثمانية غراً وعرةً يتمسك العثماني بها تمسك الانكليزي بانكليزيتهِ والفرنساوي بفرنسويتهِ والالماني بالمانيتهِ ولا يسعى كما كانت الحالة حتى امس وراء حماية دولة من هذه الدول العظام ويصم نفسهُ وامتهُ امامها وصمة الذل والعار لينجو من ظلم يلحق بهِ من نفس حكامهِ العثمانيين الذين افسدت الحكومة السالفة اخلاقهم

وارى عدد سكان المملكة قد غدا قارتفع من ٢٥ مليوناً الى ٥٠ بل الى مئة مليون والمهاجرة من الاوطان التي حتى ٢٤ يوليو كانت متى كل انسان اصبحت اثراً بعد عين بل ارى انهُ قد عاد النازحون الى اوطانهم من صوريين و يونانيين وارمن واتراك على اختلاف طبقاتهم وتنوع الاسباب التي هاجروا من اجلها وهي وان اختلفت صورة كان مرجعها الى الاستبداد [1] اراهم كلهم قد عادوا من جميع اطراف الارض من اوربا واميركا واستراليا ومصر والسودان والص[illegible] واليابان حيث تنتاب فقيرهم الامراض وكل ضروب الذل التي ترافق الفقر وتنتاب ذا اليسار منهم انواع اخرى من الذل لا تقل عن ذل الفقر بل قد تكون آلم وامرّ

وارى حكام المملكة من اكبر وزرائها الى اصغر عامل فيها يضرب بهم المثل في الهمة والنشاط والنزاهة والكل يتفانون في خدمتها وحب الاصلاح دينهم بعد الله العدل والمساواة

(١) تصعب معرفة عدد المهاجرين من المملكة العثمانية منذ اخذ يدب الفساد فيها الى آخر عهد الاستبداد ولكنهُ لا شك يبلغ عدداً كبيراً فان النازحين من لبنان وحدهُ وهو من الولايات الممتازة يبلغون نحو ٢٠٠٠٠٠ نفس فاعلم عما نزح من باقي السلطنة العثمانية التي كانت يد الظلم ايسر وصولاً اليها واشد فتكاً باهاليها فقد اخبرني احد اعضاء جمعية تركيا الفتاة ان عدد الذين فروا من السلطنة العثمانية الى فتك بهم ايدي المابين وعمالهُ في عهد الحكومة الحميدية فقط لا يقل عن المليونين

بين الرعية وديدنهم العمل لزيادة ثروتها المادية والادبية وارى مجال التقدم متسعاً لافراد الامة على اختلاف اجناسهم وادیانهم والمساواة في الحقوق عامة فلا يقام حاجزٌ حصين بين النابغ منهم واعظم مراكز الدولة لانهُ مسيحي او عربي او ارمني او سوري او غير ذلك كما كان يقام في وجهه في اكثر الولايات العثمانية اذا لم يكن تركيًّا او سنيَّ المذهبين

هذه هي المملكة ايها السادة التي اراها في الخيال للعثمانيين في الاستقبال فهل تتحقق هذه الآمال ام تذهب كلها كانها اضغاث احلام . كل ذلك يتوقف على مجلس المبعوثان وعلى ما اذا كان وراءهُ امة حية تعضدهُ وقد بدأت تذوق طعم الحريةَ فتؤيد مطالبهُ وتبذل في الوصول الى هذه الغاية كل ما عزَّ وهان

هذه آمالنا التي نعيش عليها الآن وشتان بين هذه الآمال الحية وما كانت عليهِ آمالنا بالامس . ولمن الفضل في ذلك كلهِ الفضل فيهِ الى ضحايا الحرية وشهداء النهضة الدستوريَّة منذ ايام السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز الى يومنا هذا ولا سيما اولئك الابطال الذين لم يرهبهم الوعيد ولا غرَّتهم الوعود بل قاموا ينتصرون للدستور والحرية تحت خطر الموت منذ فضَّ مجلس المبعوثان الاول . فلنشرب على ذكرهم وذكر الجيش ولنقل جميعاً ليحيَ ابطال الحرية وليحيَ الجيش العثماني ولنقم لهم التماثيل في كل انحاء السلطنة اذراراً منا بفضلهم الى الابد واعترافاً بجميلهم المرسوم على الصدور باحرف من نور ومثالاً لابنائنا من بعدنا يقرأون تاريخهم و يقتفون آثارهم اذا لا سمح الله عاد للظلم عصر في ايامهم وطمست ابصار حكامهم للاستئثار بالسيادة والبث بحقوق الامة

ويجب الآ ننسى ايضاً فضل الامة البريطانية في هذه النهضة العثمانية فقد كان لها يد قويَّة في هذه الحركة تقوّى بها الاحرار واشتدَّ ازرهم فمنعت عنهم مطامع الدول الطامعة فيهم وساعدتهم في الفوز بامنيتهم ففازوا بها دون ان يثور ثائر الثورة في البلاد وتراق دماء الالوف من العباد وهذه الامة اشتهرت في كل عصر بحب الحرية ونشر مبادئها وعضد طالبيها في كل صقع استطاعت لمساعدة اهليهِ سبيلاً وما هبَّ العثمانيون في طلبها حتى هبت لتجدتهم ووقفت في وجه من رام عرقلة مساعيهم . والحق يقال انهُ لولاها لما كانت نتيجة هذه النهضة باهرة كما نراها ولعلنا لم نكن في هذه الآمال التي نبنيها للاستقبال فلنشرب على ذكرها هذه الكاس وندعُ لها بالبقاء ولرايتها بالفوز ولصداقتها للعثمانيين بالدوام . فلتعش الامة البريطانية

الخرطوم في ١٧ دسمبر سنة ١٩٠٨ سعيد شقير